اجتهادات
حكى لا مُحاكاة

عرف العالمُ السينما الناطقة قبل ما يقربُ من قرنٍ عندما أُنتج فيلمُ (مُغَنى الجاز) 1927. أما البدايةُ الأولى للفن السابع فتعودُ إلى قرنٍ وربع القرن مع صناعة أول آلة عرض سينمائى. ومع ذلك مازال هناك من يخلطون بين السينما بوصفها فنًا يعتمدُ على الخيال وإن انطلق من واقعٍ هنا أو هناك، وبين ما يحدثُ فى الحياة.

وهؤلاء هم من يُزعجهُم أن يُشاهدوا، أو يسمعوا عن فيلمٍ سينمائيٍ يخالفُ أنماط حياةٍ يتمسكون بها، أو قيمًا يؤمنون بها ولا يقبلون غيرها، كونهم يتصورون أن الدراما عمومًا تُحاكى الواقع، أو ما ينبغى أن يكون عليه فى نظرهم. لكن السينما، والفن عمومًا، يَحكى ولا يُحاكى. وفى هذا الحكى عادةً شئُ من الواقع، وشئُ من الخيال. وهذا هو الفرقُ فى السينما بين الأفلام الروائية والوثائقية. وكلما ازداد مستوى الوعى فى أى مجتمع، قَل الخلطُ بين السينما الروائية والوثائقية، والعكس بالطبع حيث تنشبُ نزاعات لفظيةُ وأحيانًا قضائية بسبب عدم إدراك الفرق بينهما.

يعتمدُ صانعُ السينما الروائية على المجاز، ويستخدمُ لغةً فيها خيال وترميز، ويُنشئُ من ثم عالمًا عبر الحكى وليس المُحاكاة. ويتفاعل المشاهدُ مع خيال صانع العمل السينمائى، وما يُقدمُه من صورٍ ورموز، وليس مع واقعٍ يعيشُه، أو يرفضُه، أو يُريدُه.

وفى الفن، والإبداع بوجه عام، لا يصحُ أن يكون العمل تقريريًا أو مباشرًا عندما ينطوى على رسالة ما. فالعملُ الإبداعىُ، سواء فى السينما وغيرها من الفنون البصرية، أو الرواية وغيرها من الفنون الأدبية, مصنوعُ لكى يكونَ جميلاً لا واقعيًا, إذ يُعملُ فيه المُبدعُ عقله ويُطلقُ خياله، فيُثيرُ انتباهًا هنا، ودهشةً هناك، ويتركُ للمشاهد أن يفهمَ ما يصلهُ منه، ويُفكر فيه، ويُناقشه بوصفه فنًا وليس واقعًا، حتى إذا كان فيه من الواقع شئ أو أشياء. ومن الطبيعى أن يختلف الناسُ على فهم مقصده. ولكن ليس طبيعيًا أن يرجمَه من يتعاملُ مع الفن كما لو أنه واقع.

ولهذا فلكى يزدهر الإبداعُ لابد من مساحة حرية يتحركُ فيها دون قيودٍ تُكَّبله أو إرهابٍ يُخيفُ مُبدعيه.